عمر الخيام ورباعياته

— ٢ —

لقد عرف الشرق والغرب ما كان عليهِ الخيام من ثبات القدم في الفلسفة وطول الباع في الشعر وكان الادباء الانكليز اول من اشاد بذلك في ربوع الغرب ولقد اوردنا في مقالنا الاول ما قالهُ المؤرخون الفرس وخصصنا بالذكر ما ورد في كتاب « المقالات الاربع » للاستاذ النظامي العروضي السمرقندي وقلنا أن كل من اراد البحث عن الخيام فليرجع الى ذلك الكتاب النفيس في بابهِ

اما المؤرخون العرب فقد ذكروهُ بانهُ كان امام خراسان واعلم اهل زمانهِ واكثرهم تضلعاً من علوم الاغريق وأخصها الفلك والفلسفة وكان يقول بضرورة درس التاريخ السياسي على قواعد الاغريق وكان يحاول الوصول الى معرفة الخالق جلت قدرتهُ والشعور بحضرتهِ بواسطة التجرد من ماديات الحياة غير انهُ كان طليق العقيدة في الاديان

هكذا يقول القفطي المتوفى سنة ٦٤٨ هـ في كتابهِ تاريخ الحكماء

وقفى على آثارهِ المستشرق النمساوي الشهير « هامر برغستال » المتوفى سنة ١٨٥٦م في كتابهِ الذي وضعهُ عن الخيام وترجم فيهِ ٢٥ رباعية من رباعياتهِ ولقد انتهى بهِ تحقيقهُ وتحليلهُ في شخصية الخيام الى درجة ان سمّاهُ — فولتير الشرق — اشارة الى عدم تدينهِ ومخالفتهِ دين آبائهِ واجدادهِ

***

والواقع ان الخيام قد عشرتهُ حياتهُ في احوال كان الدين الاسلامي يتراجع فيها الى الوراء وكثرت فيهِ البدع فكان الخيام ينظر الى تلك البدع نظرة تشف عن حقد وغيظ حاسباً ان اصحاب البدع قوّاد مخرب وكان يرى ان بغشهم وتزهدهم هذا لم يكن الاّ احتيالاً على البسطاء باسم الدين ولذلك ترى آراءهُ فيهم كلها تهكماً جارحاً وقولاً مرّاً ومن ذلك قولهُ في احدى رباعياتهِ يخاطب صاحب الشريعة الاسلامية ويشكو إليهِ فعل هذه الطغمة وضررها على الدين

« ان الذين جاءوا بعدك زيّنوا لك دينك وشوّهوهُ وزركشوهُ حتى لو رأيتهُ لانكرتهُ »

ثم ان ذهابهُ في العبادة مذهب الفلاسفة الذين يريدون ان يعبدوا الله عبادة تأمل واستغراق في بعد عن الناس ونظر عميق في كل ما ابتدعتهُ اليد الالهية واتحائه في ذلك سنة العقلاء الحقيقيين كل ذلك أبعد الناس عنهُ وابعدهُ عنهم وفي تصريحاته الآتية ما يكفينا مؤونة البحث وطول الطريق

قال رحمهُ الله وهو خارج من نيسابور :

« هجرت نيسابور وطني العزيز المشهور باعتدال هوائهِ وعذوبة مائهِ وجمال ربوعهِ »
« فواحسرتاه على تلك العيشة الراضية وليت شعري ما نهاية تلك الحياة المفجرة والوجوه »
« الغابرة ؟ ما هي الحكمة في خلق الانسان هكذا جاهلاً قاصراً يقف عقلهُ الى هذا »
« الحد من الوجود ؟ لقد كنت اعتقد انني سأصل الى الحقيقة باخيرة سافرةً ولكن اها هي »
« قد مرت عليَّ عشرات الاعوام وانا كلما اتقدم نحوها تزداد بعداً عني حتى اراني »
« ارى كل شيء اسود داكناً ثقيلاً بارداً فالبشر باجسادهم الضخمة المنكرة وعقولهم »
« الجامدة وقلوبهم القاسية وأجوائهم المملوءين بالاقذار والاكدار لا يختلفون كثيراً عن »
« وحوش الفلا وكل ما في الارض من جمال في الطبيعة لا يساوي عندي جمال حلم »
« من تلك الاحلام الوهمية الفذيذة !

« ان الانسانية كلها في عذاب وشقاء ونزاع وخصام فكيف تنفع حياة الانسان »
« اذا كانت قصيرة عن سلع ذلك وما هي قيمة المعيشة التي تنعم فيها عشرة وتشقى الوف »
« حقاً حقاً ان الحياة لا تساوي ما فيها من هم وعناء والسعيد الذي يستريح نفسهُ »
« سعيداً لا يجد فيها ما يسرّي الهم عن نفسهِ وليس امامهُ بعد ذلك الا الموت فانهُ »
« راحة الراحات ! »

أليس هذا حقاً صراحةً ؟ !
أليس هذا انصافاً وعدلاً ؟ !
اذا لم تسلم بذلك فاقرأ قول ابي العلاء

والدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لآبي الحقد ان وجبا

ثم اذا لم تنصف احتكم الى قول الخيام نفسهُ من رباعية

« بخانه وكعبه خانهٔ بندگيست ناقوس - زدن توانه بندگيست
محراب وكنيسا ونسيج وصليب حقا كه همهٔ نشانهٔ بندگيست »

ومعناه

« ليست هياكل الاصنام والكعبة سوى اماكن للعبادة وما اصوات الاجراس »
« الاَّ تسبيح بحمد المنعم في كل شيء فمحراب الجامع وناقوس الكنيسة والهيكل »
« والصليب كلها في الحقيقة ليست الاَّ اشكالاً لحمد الله وعبادته »

أليس ذلك هو عين العبادة في اشكالها المختلفة ؟!

***

ربما يعذر المؤرخون اذا اعتقدوا ان الخيام في قوله هذا يعني الهيكل والصليب والمحراب او غير ذلك من الاشكال المادية البحتة واتخذوا من ذلك ذريعة لاحتقاره عند العامة واخلاط الناس وما دروا ان الخيام يقصد بذلك الرجوع الى ما هو روحي محض ليس للمادة طريق اليه فهي وسيلة لا غاية ورموز فقط ينظر الرائي وراءها ما هو ابعد واقصى غاية وهو يزاحم بذلك الحكماء الذين يطيرون على اجنحة من الفلسفة والحكمة تبعد عن طرق البشر وتخالف تقاليدهم

وليست عقيدة الخيام بالرغم عن كل ما قيل عنها الا بين دفتي هذه الجملة البسيطة
« الطريق لعبادة الله بعدد انفس خلائقه »

***

ولقد يلذ هنا مقارنتهُ بالامام المشهور حجة الاندلس ابن العربي في قولهِ من قصيدة

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينهِ دانِي
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب اني توجهت ركائبهُ فالحب ديني وايماني

ومع ذلك فلم يسلم ابن العربي من تهمة الخيام ؟ !

عابوا على الخيام بانهُ كان يتغزل في الخمر وليست الخمر في نظرهِ باكبر من المحراب والصليب فقد كان قولهُ فيها فقط لمسك ما وراءها من الحجب وجعلها رمزاً يشرب من رحيق خيالها وبعيد مسماها كل ما في الدنيا من لذات وآلام ولم تكن الخمر قط في نظرهِ كما كانت في نظر الشاعر العربي الجريء الذي يقول فيها

ولو لم تمس الكرم فاضل درها الى الارض لم يصح لها بالتيمُّم
فلو حرمت يوماً على دين احمد لحرمها على دين المسيح ابن مريم

هذه كل نهمة الخيام وهذه هي العقرة الاولى والاخيرة في طريق حياته فلقد كان رحمة الله عدواً لايذاء بني جلدته فتحنى عنهم مكاناً قصياً وعاش في اواخر حياته بعيداً حتى عن الادباء والفلاسفة وكان يزى في الطبيعة وحدها خير اديب ومعلم رفيق فكنت لاتراه الا تحت شجرة او على ضفاف نهر لتقد النار بين جنبيه وتبرّح به آلامها وتصطك ركبهُ من هول المعركة الوجدانية الناشئة بين حنايا ضلوعه بين الكمال المطلق والحقيقة المحجّبة ولم يتركه حسادهُ في هذا الحد من العذاب بل ضغطوا عليه في تشويه سمعته بين الناس حتى كان رحمة الله كثيراً ما يتمثل بهذا البيت ويراهُ تسلية لهُ

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الحسّاد

***

ولقد ورث الخيام كُبرهُ وسعة عقله اخلاقاً قاوم بها نفسهُ الامّارة واخضعها الى وافر عقله وكبير عقله وعميق تجاربه فعاش بالرغم من ذلك كله مهيباً قوي النفوذ بعيداً عن الدنايا ولم يكن في حياته فطر « كالفرد ده موسيه » او « بل فرلين » أو غيرهم من تلكم الجماعة الذين قضوا حياة كلها أشراً وبطراً وتهتكاً وخلاعة

اما عملهُ فقد اكتسبهُ بانصبابه على الدرس وانكبابه على البحث والتنقيب ولقد ولّي ادارة مرصد بغداد فطار ذلك بشهرته وبعد صيتهُ ونظر اليه العراقيون نظرتهم الى الفيلسوف ابن سينا الذي توفي والخيام في العشرين ربيعاً ولقد كان الخيام اول عالم رياضي بحث في مقاييس المكعبات واتخذ لهُ فيها مقياساً خاصاً ورسالتهُ في الجبر كانت اول رسالة ظهرت من هذا النوع في العربية ولقد انتهز فرصة وجوده في رياسة المرصد الآنف الذكر ووضع خرائطهُ الفلكية المشهورة الذي سماها (زيج ملكشاه) نسبة الى ذلك الملك العظيم الذي اسند اليه رآسة المرصد البغدادي

ووضع حساباً للوقت اصلح به التاريخ الفارسي باضافة سنة كبيسة الى اربع سنوات من سني الحساب الفارسي ويعرف هذا الاصطلاح بالحساب الجلالي نسبة الى جلال الدين وهو لقب السلطان ملكشاه ولقد حازت السنة الجلالية اعتبار علماء الغرب حتى ذهبوا الى انها افضل بكثير من الحساب « الغريغوري » الذي وضع بعد ذلك بخمسة قرون

وليس من بدع ان تؤخذ على الخيام الاغلاط في كتبه وحساباته فالوقت كان فجراً للمدنية ومهداً للحضارة ولم يكن العلم في ذلك العهد الا محاقاً في مظنّة الابدار

اما في الواجب والوجود والحياة والآداب والحكمة والاجتماع وما وراء الطبيعة فحدث

عن الجبر ولا حرج فلقد ضرب في الجميع بسهم وافر وفوز باهر ونعم محور فلسفته في الاجتماع والحكمة ذلك المصراع العربي الفريد

« اغتنم الفرصة بين القدمين »

فالخمر والجنات والعيدان ولذة الحياة والطرب والغزل والهوى كلها الفاظ كان يتنزّ بها الناس الى انتهاز الفرص واغتنامها ما دامت في متناول اليد وتحت القدم

***

اما رباعياته فلقد نقف امامها حيارى لا دليل لنا ولا نعرف بالضبط عددها الى اليوم وفي نسخ الهند وفارس تربي على ٦٠٠ او الالف رباعية ويصعب علينا جداً ان نفرّق بين الموضوعة والاصلية ويعتقد كثير من الادباء ان فيها كثيراً لشعراء الفرس المشهورين كالخواجه عبد الله الانصاري وابي سعيد ابي الخير والفردوسي والحافظ وغيرهم

واقدم نسخة خطية من رباعياته كتبت في سنة ٨٦٠ اي بعد وفاة الخيام بـ ٣٤٣ عاماً وهذه النسخة التي رآها كاتب هذه السطور موجودة الآن في مكتبة (بودلي) في جامعة اكسفورد تحت نمرة خصوصية ٥٢٥ وعدد الرباعيات فيها لا يتجاوز مئة ٢٥٠ رباعية ويعتقد الاستاذ « بوكوسكي » ان ثمانين من رباعيات هذه النسخة للخيام والباقيات متخللات ونظراً لعدم وجود نسخة اقدم منها فلنا نقف امام الكل واجمين

واول رجل عرّف الخيام للانكليز واوربا كان توماس هيد Thomas Hide من اساتذة جامعة اكسفورد في كتابه « مذاهب الايرانيين القدماء » Mediams and Parthians وبحث فيه عن الرباعيات وصاحبها بحثاً ضافياً ومع كثرة تراجم رباعيات الخيام نستطيع ان نعتبر ان ترجمة الشاعر الانكليزي الشهير Fitz Gerald فتزجرالد هي التي اطارت شهرة الخيام في انجلترا وامريكا وحازت قصب السبق على الكثير من نظيراتها وكان ذلك في سنة ١٨٥٩ وذلك يرجع الى اسباب اهمها ان فتزجرالد ترجمها الى الانكليزية شعراً باسلوب رنيد عالٍ وجد فيه الانجلوساكسون روح « شكسبير » و « ملتون » و « سوينبرن » وغيرهم من الشعراء الانكليز المعدودين في الطبقة الاولى

ولقد قال « فتزجرالد » بذلك شهرة لا تقل عن شهرة الخيام نفسه وراجت كتبه واشعاره رواجاً باهراً وأقبل المتأدبون من كل صوب وقرروا فيما بينهم افتتاح نادي باسم الخيام في قلب لندن والنادي فيها الى اليوم مشهور باسم نادي الخيام !

ولقد ذكرهُ المستشرق النمساوي « برغستال » في كتابهِ الذي ذكرناهُ في اول الكلام وذكرهُ المستشرق الفرنسي « غارسي دي تامي » وترجم عشرين رباعية من رباعياته ولقد اصاب اللفظ فيهم كثيراً ولم يصب المعنى

وكذلك ذكرهُ « سراوسلي » المستشرق الانكليزي وترجم كثيراً من رباعياته

وذكرهُ « بارتلي دربلو » في (كتابهِ المكتبة الشرقية او لغتنا العمومية) ويذهب الشاعر الفرنسي الطائر الصيت (تؤفيل جوتييه) المتوفى سنة ١٨٧٢ ان كل الاناشيد التي في « عاملت » يمكن وجودها مبعثرة في رباعيات الخيام

ويذهب (Ronan) رونان ان الخيام اول شاعر ظهر في عالم التكون والفساد ويقول «ويليم جاكسون» الرحالة الامريكي المشهور واستاذ اللغات الهندية في جامعة كولومبيا في كتابهِ « من القسطنطينية الى وطن الخيام » (From Costantinople to the Home of Omar El Khayyam) « أن اشعار الخيام في بنت الحان قد ترجمت لفظاً ولم يراع فيها مدلولها فجاءت مصداقاً لما تشيعهُ الناس فيهِ من الزندقة وحب الالحاد»

وترجم رباعياتهِ الفيلسوف التركي المشهور رضا بك توفيق وصدرها بمقدمة جاء فيها « ان الشاعر الالمعي ابو الفتح النيسابوري المشهور بالخيام يعد اشهر شعراء الفرس على الاطلاق ولقد يكون في بداعة الفاظهِ ورقة معانيهِ وجميل حواشيهِ اكبر قدوة لكثير من الشعراء في المشرق »

ويقول اللورد كرزون في كتابهِ « ايران والمسألة الايرانية » Persia and the Question of Persia. عند زيارتهِ لقبر الخيام في نيسابور

« لقد صار عمر معروفاً بواسطة يراعة « فتزجرالد » وبقية الادباء المجتهدين واني هنا في مزاره في نيسابور تذكرت واحداً من مترجمي رباعياتهِ كان يؤمل لو اتاح لهُ الزمان ان تحمل ترجمتهُ فتدفن في مرقد الفيلسوف وقلت في نفسي لو اني استطعت ان انفذ وصية هذا المترجم الباسل فاكون قد اهديت اجمل هدية الى هذا الثاوي في تلك الروضة البعيدة عن ضوضاء المدنية وشغب الانسان هنا في نيسابور ، في وسط الاشجار ، في مهبط النسيم السحري ، هنا في مشرق الرباعيات . واكون بذلك قد ادّيت ثمن زيارتي! »

ولكن واأسفاه ! السيد مصطفى الطباطبائي